مكانة الحديث فى الشريعة

الدكتور حسام الدين المنصورى

سابق رئيس، كلية معارف اسلامية، جامعة كراتشى

القرآن و السنة هما المصدران الاصليان للشريعة الاسلامية فمكانة السنة اذن رفيعة عظيمة ذات أهـميةٍ كبيـرةٍ ولها قوه تشريعية ملزمة وعليها يقوم جزء كبير من كيان الشريعة الاسلامية۔ وليس للمسلم نـجـاح الـدنيا والآخرة الا اتباع أوامرها واجتناب نواهيها والوقوف عند حدودها ونستطيع نبين ونوضح مكانتها فيما يأتى :

١. السنة مبينة للقرآن

فـقـد كـلف الـرسول ﷺ بمهمة تبين ما نزل الى الناس وقال تعالىٰ : **وانـزلنا اليك الذكر لتبين لـلناس مانزل اليهم** ۔ (١) وقـد قـام رسـول الـله ﷺ باداءِ هذه المسؤلية المهمة خير قيام ، فأدى الامانة ، وبلغ الرسالة وبيّن المراد من آيات اللهِ۔

٢. والسنة مفصلة لمجمل القرآن

كـالأمـر بـالـصـلاة وجـاء مجملاً لم يبين القرآن عدد ركعاتها ولاهيئتها ولااوقاتها ، وكالامر بـالـزكـاة ، جاء مطلقاً لم يقيد بالحد الادنىٰ الذى يجب فيه الزكاة ، ولم تبين مقاديرها ولاشروطها ، قال تـعـالىٰ : وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون۔ (٢) وتأتى السنة المطهرة فتفصل عـدد الـصـلـوٰت ، وأوقـاتها ، وعدد ركعاتها ، ومبطلا تها وتدل على شروطها وأركانها كما نفصل ذكر الاموال التى فيها زكاة والتى لازكاة فيها وتبين السنة النصاب الذى تجب فيه الزكاة ومقدارها ونسبتها۔

وكـذلك كـانت تقع كثير من الحوادث التى لم ينص عليها فى القرآن ، فلا بد من بيان حكمها عـن طـريـقة رسـول الـلـه ﷺ وهـو مبـلـغ عـن ربه وأدرى الخلق بمقاصد شريعة الله وحدودها ونهجها ومـراميهـا۔ قـال تـعـالىٰ : ومـا أنـزلـنـا عليك الكتاب الا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمةً لقومٍ يؤمنون۔ (٣)

وعن عمران بن حصين أنه كان جالساً ومعه أصحابه ، فقال رجل من القوم : لاتحدثونا الا بالقرآن۔ فقال له أذن۔ فدنا۔ فقال : أرايت لو وكلت أنت وأصحابك الى القرآن أكنت تجد فيه صلاة الظهر أربعاً وصلاة العصر أربعاً والمغرب ثلاثاً تقرأ فى اثنين ؟ أرأيت لو وكلت أنت وأصحابك الى القرآن أكنت تجد الطواف بالبيت سبعاً والطواف بالصفا والمروة ؟ ثم قال : أى قوم ! خذوا عنا فانكم والله ان لاتفعلوا لتضلن۔ (٤)

وورد آيات القرآن مجملة أمر طبيعى ، لأن القرآن بالنسبة للمسلمين الدستور الذى يقرر لهم الأسس الفكرية والاجتماعية والسياسية والروحية الذى يجب أن يقيموا مجتمعهم عليها ويترك التفصيلات الجزئية للسنة۔

٣.وفى السنة احكام عليها جمهور المسلمين

لم تأت فى القرآن تحريم نكاح المرأة على عمتها أو خالتها۔ عن ابى هريرةؓ ان رسول الله ﷺ قال : لايجتمع بين المرأة وعمتها ولابين المرأة وخالتها۔ (٥)

وحد شرب الخمر : عن أنسؓ قال : جَلد النبى ﷺ فى الخمر بالحديد والنعال وجلد ابو بكر اربعين۔ (٦)

٤.وفى السنة تخصيص لعموم محكم القرآن

ومن ذلك تخصيص الحديث : لايرث المسلم الكافر ولاالكافر المسلم۔ والآية : ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك ان كان له ولد ، فان لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث۔ (٧)

فالآية تدل على أن كل والد يرث ولده ، وكل مولود يرث والده حتىٰ جاء ت السنة بأن المراد ذلك مع اتفاق الدين مع الوالدين والمولود دين ، وأما اذا اختلف الدينان فانه مانع من التوارث كما قال النبى ﷺ لايرث المسلم الكافر ولاالكافر المسلم۔ (٨)

٥.والقرآن

يحث المسلمين على اتباع السنة ويوجب على المسلمين ان يطيعوا الرسول ويجعل طاعة الرسول طاعةً لله عزوجل قال تعالى : من يطع الرسول فقد أطاع الله۔ (٩)

والقرآن يشجع الناس الى اسوة حسنةٍ كاملةٍ غير ناقصة وهى اسوة سيّد الانبياء والمرسلين قال تعالىٰ : لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر۔ (١٠)وكما وجب

علی الصحابة بأمر الله فی القرآن اتباع الرسول وطاعته فی حیاته، وجب علیهم من بعدهم من المسلمین اتباع سنته بعد وفاته۔

أن النصوص التی أوجبت طاعته عامة لم یقید ذلك بزمن حیاته، ولا بصحابته دون غیرهم، ولأن العلة جامعة بینهم وبین من بعدهم، وهی أنهم أتباعٌ لرسولٍ امر الله باتباعه وطاعته، ولأن العلة أیضاً جامعة بین حیاته ووفاته، اذ کان قوله وحکمه وفعله ناشئاً عن مُشَرعٍ معصومٍ امر الله بأمتثال أمره، فلا یختلف الحال بین ان یکون حیّاً أو بعد وفاته (۱۱)، وقد أرشد ﷺ الی وجوب اتباع سنتّه حیث یغیب المسلم عنه حین بعث معاذ بن جبلؓ الی الیمن، فقال: کیف تقضی اذا عرض لك قضاءٌ؟ قال: اقضی بکتاب الله۔ قال: فان لم تجد فی کتاب الله؟ قال: فبسنة رسول الله ﷺ قال: فان لم تجد فی سنة رسول الله ﷺ ولا کتاب الله؟ قال: أجتهد برأیی ولاآلو فضرب رسول الله صدره فقال: الحمد لله الذی وَفَّقَ رسول رسول الله لما یُرضی رسولَ اللهِ۔ (۱۲) وقال تعالیٰ: وما اتکم الرسول فخذوه ومانهاکم عنه فانتهوا۔ (۱۳)

۲۔ اذا التفتنا الیٰ الاحادیث الثابتة

وجدنا فیها تصریح بمکانة السنة فی الشریعة۔ فمن ذلك مارواه امام البخاری عن ابی هریرةؓ عن رسول الله ﷺ أنه قال: کل أمتی یدخلون الجنة الا من أبیٰ، قالوا: یارسول الله ﷺ من یأبیٰ؟ قال من اطاعنی دخل الجنة ومن عصانی فقد أبیٰ۔ (۱٤)

وحث النبی ﷺ الصحابة والمسلمین من بعدهم علی اتباع سنته بأخذ النواجذ وذلك مارواه ابوداؤد عن عرباض بن ساریةؓ قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بلیغة ذرفت منها العیون ووجلت منها القلوب فقال قائل: یارسول الله ﷺ فان هذه موعظة مَوَدِّعٍ فماذا تَعْهَدُ الینا؟ فقال: أوصیکم بتقوی الله والسمع والطاعة وان عبداً حبشیّاً فانه من یعش منکم بعدی فسیریٰ اختلافاً کثیراً فعلیکم بسنتی وسنة الخلفاء الراشدین المهدیین تمسکوا بها وعضوا علیها بالنواجذ وایاکم ومحدثات الامور فان کل محدثةٍ بدعة وکل بدعةٍ ضلالةٌ۔ (۱۵)

فهذه هی مکانة الحدیث وأهمیتها ولانستطیع نعمل علی القرآن دون الحدیث ولانستطیع نفهم احکام القرآن، لأن القرآن مجمل وفیه متشابهات۔ والحدیث یفسر ویُوَضِّح احکامه کی یسهل علی الناس تنفیذه۔ واخبر النبی ﷺ عن الرجال الذین یأتون بعده وسیقولون بینی وبینکم هذا الکتاب

مارواہ ابوداؤد عن المقداد بن معدیکرب عن رسول اللہ ﷺ أنه قال : ألا انی اوتیت الکتاب ومثله معه ، ألا یوشك رجلٌ شبعان علی أریکته یقول : علیکم بهذا القرآن فما وجدتم فیه من حلالٍ فأحلوه وماوجدتم فیه من حرامٍ فحرّموه۔ (١٦)

عن علقمةؒ ان امرأة من بنی اسد أتت عبداللہ بن مسعودؓ فقالت انه قد بلغنی أنك قلت ذیت وذیت والواشمة والمستوشمة۔ وانی قرأت مابین اللوحین فلم أجد الذی تقول ، وانی لأظن علی اهلك منها ، قال فقال لها عبداللہ فادخلی فانظری ، فدخلت فنظرت فلم تر شیئاً ، ثم خرجت فقالت لم أر شیئاً ، فقال لها عبداللہ أما قرأت : وما آتاکم الرسول فخذوه ، وما نهاکم عنه فانتهوا۔ لآیة۔ قالت بلیٰ قال : قال فهو ذاك(١٧) ! قال الفضل بن زیاد قال سمعت احمد بن حنبل و سئل عن الحدیث الذی روی ان السنة قاضیة علی الکتاب قال مااجسر علی هذا ان اقوله ، ولکن السنة تفسیر الکتاب وتعرف الکتاب وتبینه (١٨) وعن ایوب السختیانی أنه قال اذا حدثت الرجل بالسنة فقال دعنا من هذا ، وحدثنا من القرآن فأعلم أنه ضال مضل۔ (١٩)

ولقد ظهرت الدعوة بأن السنة لاحاجة لها۔ وانه لامکان لها فی مصادر الشریعة ، وأن القرآن وحده کاف ، وزعموا أن ماکان یصدر عن النبی ﷺ من اقوالٍ سواء أصحت عنه ام لم تصح تدبیر مؤقت للمجتمع یوم ذاك۔

أذکرهنا قول الامام الشافعیؒ قال : وسنة رسول اللہ من ثلاثة أوجه ، **أحدها** : ماأنزل اللہ فیه نص کتاب فسن رسول اللہ بمثل نص الکتاب۔

والثانی : ماأنزل اللہ فیه جملة کتاب فبین عن اللہ معنیٰ ماأراد بالجملة۔ وأوضح کیف فرضها عاماً أو خاصاً ، وکیف أراد أن یأتی به العباد۔

والثالث : ما سن رسول اللہ ﷺ مما لیس فیه نص کتاب ، فمنهم من قال جعله اللہ له بما افترض من طاعته وسبق فی علمه من توفیقه لرضاه أن یسن فیما لیس فیه نص کتاب۔ ومنهم من قال لم یسن سنة قط الا ولهذا أصل فی الکتاب کما کانت سنته ، کتبیین عدد الصلاة وعملها علی أصل جملة فرض الصلاة ، وکذلك ماسن فی البیوع وغیرهما من الشرائع۔ لأن اللہ تعالیٰ ذکره قال : لاتأکلوا اموالکم بینکم بالباطل الا ان تکون تجارة عن تراض منکم۔ وقال تعالیٰ : وأحل اللہ البیع وحرم الرباء۔ فما أحل وحرم فانما بین فیه عن اللہ کما بین فی الصلاة ومنهم من قال : بل جاء ته به رسالة اللہ فأثبتت

سنته بفرض الله تعالیٰ۔ ومنهم من قال : ألقى فى روعه كل ماسن وسنته الحكمة التى ألقيت فى روعه عن الله تعالیٰ ؟ (٢٠)

تدوين السنة :

يتردد على ألسنة بعض العامة ، ويروج ذلك نفر من المغرضين أن السنة لم تدون الا بعد مضىٰ قرن من الزمان ، ويعتمدون فى ذلك على أدلة واهية لاحجة لهم بها۔ (٢١)

فأولا نحن ننظر كيف كان الصحاة يتلقون سنة رسول الله ﷺ وكان رسول الله ﷺ يعيش بين أصحابه دون أن يكون بينه وبينهم حجاب ، فقد كان يخالطهم فى المسجد والسوق والبيت والسفر والحضر ، وكانت أفعاله واقواله محل عناية منهم وتقدير حيث كان رسول الله ﷺ محور حياتهم الدينية والدنيوية ، منذ أن هداهم الله به وأنقذهم من الضلالة والظلام الى الهداية والنور ، ولقد بلغ من حرصهم على تتبعهم لأقواله وأعماله ، ان كان بعضهم يتناوبون ملازمة مجلسه يوماً بعد يوم ، فهذا عمر بن الخطابؓ يحدثنا عنه البخارى بسنده المتصل اليه ، يقول : كنت أنا وجار لى من الأنصار فى بنى أمية بن زيد وكنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ۔ ينزل يوماً وأنزل يوماً ، فاذا انزلت جئته بخير ذلك اليوم واذا انزل فعل مثل ذلك۔ وليس هذا الا دليلاً على نظر الصحابة الى رسول الله ﷺ نظرة اتباع واسترشاد برأيه وعمله ، لما ثبت عندهم من وجوب اتباعه والنزوله عند أمره ونهيه ، ولهذا كانت القبائل النائية عن المدينة ترسل اليه بعض افرادها ليتعلموا أحكام الاسلام من رسول الله ﷺ ثم يرجعون اليهم معلمين ومرشدين۔ (٢٢) اذا رأينا الى كتابة الحديث فوجدنا لم يرون الحديث فى عهد النبى ﷺ كما دون القرآن ، فانا نرىٰ أن رسول الله ﷺ اتخذ كتبة للوحى يكتبون آيات القرآنية عند نزولها ، ولكنه لم يتخذ كتبة يكتبون ماينطق به من غير القرآن۔ بل قد وجدنا أحاديث كثيرة تنهى عن تدوين الحديث۔ (٢٣)

فنذكر ماروى من كراهية الكتابة : عن أبى سعيد الخدرىؓ أن رسول الله ﷺ قال : لاتكتبوا عنى ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه وحدثوا عنى ، ولاحرج۔ (٢٤) رواه مسلم

وهذا الحديث أصح ماورد عن رسول الله ﷺ فى هذا الباب۔وحديث آخر أبى سعيد الخدرىؓ قال : استاذنا النبى ﷺ فى الكتابة فلم يأذن لنا۔ (٢٥)

وروى عن عن أبى هريرةؓ أنه قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نكتب الأحاديث فقال: ماهذا الذى تكتبون ؟ قلنا : احاديث نسمعها منك۔ قال : كتابٌ غير كتاب الله ؟ أتدرون ؟ ماضل الأمم

قبلكم الا بما اكتتبوا من الكتب مع كتاب الله تعالىٰ۔ (٢٦)

ان كراهة كتابة الأحاديث انما كانت فى لإبتداءِ كيلا تختلط بكتاب الله تعالىٰ ، فلما وقع الامن عن الاختلاط جاز كتابته۔ فنذكرهنا الاحاديث التى جاز كتابة الحديث ونسخت الاحاديث التى فيها كراهة الكتابة۔ فمن هذه لإحاديث مارواه البخارى ومسلم وغيرهما۔ عن أبى هريرةؓ أن خزاعة قتلوا رجلاً من بنى ليث عام فتح مكة بقتيل منهم قتلوه ، فأخبر بذلك النبى ﷺ فركب راحلته فخطب فقال: ان الله حبس عن مكة القتل أو الفيل شك ابوعبداللهِ وسلط عليهم رسول الله ﷺ والمؤمنين۔ الا وانها لم تحل لأحد قبلى ، ولم تحل لأحدٍ بعدى۔ ألا وانها حَلَّتْ لى ساعة من نهار الا وانها ساعتى هذه حرامٌ : لايختلى شوكها ، ولا يعضدُ شجرها ، ولاتلتقط ساقطتها الا لمنشدِ فمن قتل فهو بخير النظرين : اما ان يعقل ، واما ان يقاد اهل القتيل۔

فجاء رجل من اهل اليمن فقال : اكتب لى يارسول الله۔ فقال : اكتبوا لأبى شاة۔ (٢٧)

وابو هريرةؓ يقول : مامن أصحاب النبى ﷺ احدٌ اكثر حديثاً عنه منى ، الا ماكان من عبدالله بن عمرو فانه كان يكتب ولا اكتب۔ (٢٨)

عن أبى هريرةؓ قال : كان رجل من الانصار يجلس الى رسول الله ﷺ فيسمع من النبى الحديث فيعجبه ولايحفظه۔ فشكى ذلك الى رسول الله ﷺ فقال يارسول الله ﷺ انى لأسمع منك الحديث فيعجبنى ولااحفظه۔ فقال رسول الله ﷺ : استعن بيميك وأومأ بيده الخط۔ (٢٩)

عن عبدالله بن عمروؓ قال : كنت أكتب كل شيءٍ أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه فنهتنى قريش وقالوا : أتكتب كل شيءٍ تسمعه ورسول الله ﷺ بشر يتكلم فى الغضب والرضا ، فأمسكت عن الكتاب فذكرت ذلك الى رسول الله ﷺ فأومأ باصبعه الى فيه فقال : اكتب فوالذى نفسى بيدهٖ مايخرج من الا حقّ۔ (٣٠)

ولو نظرنا فى هذه الاحاديث لوجدنا انها متأخرة زمنا ، فأبوهريرةؓ من الذين دخلوا فى الاسلام فى وقت متأخر ، اذا اسلم فى السنة السابعة للهجرة ، فقدم المدينة ورسول الله ﷺ فى خيبر ، وكذالك فان حديث أبى شاة كان فى السنة الثامنة ، اذا أن الفتح كان فيها ، مما يؤيد نسخ حديث أبى سعيد المتقدم۔

ويقول بعضهم : ان النهى الوارد فى حديث أبى سعيد كان لعامة الناس فيمن ان يكون الرسول

ﷺ أذن بالكتابة لمن كان يثق بضبطه ودقته، وعدم خلطه بين القرآن والحديث كعبدالله بن عمرو۔(۳۱)

وقد اراد بعض العلماء التوفيق بين هذه الاحاديث المتضاربة، قالوا: ان النهى عن الكتابة كان وقت نزول القرآن، خشية التباس القرآن بالحديث۔ (۳۲)

☆☆☆

المصادر والمراجع

١۔ سورة النحل، الآية ٤٤

٢۔ سورة النور، الآية ٥٦

٣۔ سورة النسآء، الآية ٦٥

٤۔ الكفاية، ص: ٥١، الخطيب البغدادى ـ المكتبة العلمية

٥۔ فتح البارى، ج: ٩، ص: ٢٠٠ حديث رقم ٥١٠٩ ـ دارالسلام

٦۔ فتح البارى، ج: ١٢، ص: ٨٠ حديث رقم ٦٧٧٦ دارالسلام الرياض

٧۔ سورة النسآء، الآية ١١

٨۔ فتح البارى، ج: ١٢، ص: ٦١ حديث رقم ٦٧٦٤ ـ دارالسلام الرياض

٩۔ سورة النسآء، الآية ٨٠

١٠۔ سورة الاحزاب، الآية ٢١

١١۔ السنة ومكانتها السباعى الدكتور مصطفى، دارالسلام

١٢۔ سنن ابى داؤد السجستانى، ابو داؤد سليمان بن اشعث، حديث: ٣٥٩٧ دارالسلام، جامع الترمذى: لاحكام، حديث رقم ١٣٢٧ دارالسلام

١٣۔ سورة الحشر، الآية ٧

١٤۔ فتح البارى العسقلانى ابن حجر احمد بن على، ج: ١٣، حديث: ٧٩٨٠ دارالسلام

١٥۔ سنن ابى داؤد السجستانى، ابو داؤد سليمان بن اشعث، كتاب السنة، حديث: ٤٦٠٧ دارالسلام

١٦۔ سنن ابى داؤد السجستانى، ابو داؤد سليمان بن اشعث، كتاب السنة، حديث: ٤٧٠٤ دارالسلام

١٧۔ فتح البارى العسقلانى ابن حجر احمد بن على، ج: ١٠، حديث: ٥٩٣١، ومسلم القشيرى ابى الحسين مسلم بن حجاج، حديث: ٨٨٧٣ دارالسلام

١٨۔ الكفاية، البغدودى، الخطيب ابوبكر احمد بن على، ص: ١٥ المكتبة العلمية

١٩۔ السابق، ص: ١٦

٢٠۔ مفتاح الجنة: السيوطى، الهافظ جلال الدين، اهداء الجامعة لاسلامية، سنة ١٩٧٩ ء

٢١۔ الحديث النبوى، ص: ٣٢ الصباغ، محمد، المكتب الاسلامى، سنة ١٩٧٧ ء

٢٢۔ السنة ومكانتها، السباحى الدكتور مصطفى، ص: ٦٤، دارالسلام سنة ٢٠٠٨ م

٢٣۔ فجر الاسلام: احمد أمين، ص: ٢٠٢ دارالكتب العلمية، مطبوعة ٢٠٠٦ م

٢٤۔ صحيح مسلم القشيرى مسلم بن حجاج، رقم الحديث ٧٥١٠، دارالسلام

۲۵۔ جامع الترمذی ،الترمذیابوعیسیٰ محمد بن عیسیٰ ، رقم الحدیث ٦٦٦٥ دارالسلام

۲٦۔ السنة قبل التدوین ،الخطیب محمد عجاج ، ص: ۳۰۳ مکتبة وهبة سنة ۱۹٦۳ ء

۲۷۔ فتح الباری ،العسقلانی ابن الحجر احمد بن علی ، ج: ۱، حدیث رقم: ۱۱۹ دارالسلام و جامع الترمذی ، الترمذی ابوعیسیٰ محمد بن عیسیٰ، رقم الحدیث ۲٦٦۷، دارالسلام

۲۸۔ فتح الباری ،العسقلانی ابن الحجر احمد بن علی ، ج: ۱، حدیث رقم: ۱۱۳ دارالسلام

۲۹۔ جامع الترمذی ،الترمذیابوعیسیٰ محمد بن عیسیٰ ، رقم الحدیث ۲٦٦٦ دارالسلام

۳۰۔ سنن ابی داؤد السجستانی ، ابو داؤد سلیمان بن الاشعث ، رقم الحدیث ۳٦٤٦ دارالسلام

۳۱۔ الحدیث النبوی ۳٦، الصباغ ،محمد ، المکتب الاسلامی ، سنة ۱۹۷۷ ء

۳۲۔ فجر الاسلام ، احمد أمین ، ض: ۲۰۳، دارالکتب العلمیة سنة ۲۰۰٦ ء